

التراث والهوية

د. نور الدين بن عبد الله

جامعة زيان عاشور بالجلفة

لقد كثر الكلام عن الهوية الوطنية، وما هي محدداتها، ثم تردد سؤال جوهري مفاده: هل يشعر الفرد الجزائري بانتمائه لوطنه ثم لأمته؟، وما هي نظرة الفرد الجزائري لتراثه، وهل يمكن لهذا التراث أن يكون عاملا في ترسيخ قيم الهوية الوطنية، من أجل هذا وغيره من الاستفسارات، ارتأينا الكلام، عن الهوية والتراث، ومن أجل ذلك حاولنا الوقوف عند تحديد مفهوم التراث، وللهوية، ثم التطرق للعلاقة بينهما، وقد أجمالنا نقاط هذه الورقة البحثية فيما يلي:

- أ- مفهوم التراث
- /أنواعه.
- ب- مفهوم الهوية
- أ/ من الجانب الديني
- ب/ من الجانب الاجتماعي
- ت- علاقة الهوية بالتراث

مفهوم التراث:

هو من الإرث، الذي من معانيه الأصل، قال ابن الأعرابي: الإرث في الحسب، و الورث في المال، والإرث هو الميراث، وهو الشيء الذي يتوارثه الآخر عن الأول.¹
أما اصطلاحاً، فبمجرد ذكر كلمة التراث تتصرف أذهاننا الى الفلكلور (التراث الشعبي)، وهو ما يقتصر على الموروث الشفاهي، والمكون من العادات والآداب بكل صنوفها.²

والملاحظ لهذا التعريف يُدرك أنه يتضمن قدراً من الإجحاف في حق الكلمة، ودليل ذلك أن كلمة التراث أصلها من الإرث وهو ما يُبقيه الأول للآخر، وفي هذا المقام نتحدث عن المنقول المادي والشفاهي، فالشفاهي ينطبق على التعريف المتفق عليه (بالنسبة للتراث الشعبي)، أما المادي، فينصرف الى كل منقول مادي عيني، وهو ما اصطلح عليه بالآثار. إضافة الى هذا، فمُسمى الآثار، يحمل في ثناياه دلالة ميراث الأقدمون.

كما يدخل التراث في علاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقته بغيره في المكان الذي يعيش فيه، حيث تتبلور تلك العلاقات في مجمل سلوك الإنسان وتصرفاته، وأفكاره مما يُعرف بالثقافة، ومن هنا كان التراث وثيق الصلة بالثقافة، إن لم يكن مرادفاً لها، حيث يدخل كذلك ضمن إطار ثقافة الإنسان البيئية-المكانية-³، وهو ما يُضفي على التراث صفة الانتقال من جيل الى آخر، ومن مكان لآخر، كما أن هذا التوارث يجعله لصيق بشخصية الفرد.

وعليه يستقر رأينا على أن التعريف الدقيق لكلمة التراث، هو كل قديم خلفه الأولون للآخرين. والملاحظ أن هذا التعريف، يحمل في ثناياه معنى الانتماء، بمعنى أن هذا القديم يُحرك فينا معنى الانتماء، والرسوخ والقدم في المكان.

أنواعه:

انطلاقاً من التحديد الاصطلاحي لمسمى التراث، يمكن تحديده في نوعين هما:

أ/ **التراث الشعبي**: والذي يتضمن كل من المعتقدات والمعارف الشعبية، العادات والتقاليد الشعبية، الفنون الشعبية، بما فيها الآداب الشعبية. وهو ما يعرف بالثقافة الشعبية، أو الموروث اللامادي.

ب/ **التراث المادي**، ويتضمن الآثار المادية للإنسان القديم.

مفهوم الهوية:

ورد عند ابن منظور، أن هُوية تصغير هُوة، وقيل الهوية بالفتح، هي البئر بعيدة المهواة.⁴ و المتمعن في هذا التعريف، يدرك اقترابه من المعنى الاصطلاحي، ذلك أن معنى العمق قد ينطبق على القدم في التاريخ، والأصالة. فهوية الشخص تعنى انتمائه لجماعة ولمكان بعينه، وبهذا نعود الى الثقافة لارتباطها بالمكان. والسؤال الذي يفرض نفسه علينا كمسلمين، هو هل في النص القرآني ما يشير الى معنى الهوية وعلاقة الإنسان بالمكان الذي نشأ فيه؟.

الهوية من المنظور الديني:

يُعد موضوع الهوية من المواضيع الهامة في مجموعة من العلوم (النفسية والاجتماعية....)، وذلك لارتباطها بالإنسان، وبذكر الإنسان نذكر المكان، ولهذا كان موضوع الهوية مرتبط أشد الارتباط بعلاقة الفرد بمكان نشأته، ومن هذا المنظور ارتأينا أن نقف عند هذه المعاني في النص القرآني، بمعنى هل في القرآن الكريم إشارة الى العلاقة التي تربط الفرد بوطنه؟

لم يرد لفظ الوطن في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، وإنما وردت فيهما ألفاظ: الأرض، الديار، البلد، وغيرها، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)⁵، وقال أيضاً (لَا يَنْهَакُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)⁶

ومع أن لفظ الوطن لم يرد بعينه بالنص القرآني إلا أن دلالة الأرض والديار، توصل إليه، ورغم ذلك فقد تحدث الله تعالى عن حب الأوطان، وعلاقة الإنسان بوطنه، وذلك بأن ربط الخروج من الديار بقتل النفس، فقال عز من قائل: (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا)⁷.

فالآية الكريمة توضح لنا بما لا يدع مجالا للشك، تشبث الإنسان بموطنه، كتمسكه بروحه، وخير دليل على هذا، هو قول المصطفى صلى الله عليه وسلم، حين هم بالخروج من مكة قاصدا المدينة المنورة، (والله إنك أحب البلاد على قلبي ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت) أو كما قال عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومن هذا المنطلق، شرع الشارع الحكيم أنه من مات دون عرضه، ونفسه، وماله فهو شهيد، فإن كان الوطن هو الوعاء الحاوي لكل هذه العناصر فمن باب أولى. والملاحظ أيضا أن نظرة الإسلام للوطن، أنه الأرض التي يسكن عليها المسلمون وتخضع لحكمهم دون النظر إلى الاعتبارات والفوارق الجنسية أو العرقية أو القومية أو العنصرية.

الهوية من المنظور الاجتماعي

الهوية هي الذاتية والخصوصية وهي القيم والمثل والمبادئ التي تشكل الأساس للشخصية الفردية أو المجتمع، وهوية الفرد هي عقيدته ولغته وثقافته وحضارته وتاريخه، وكذلك هوية المجتمع فهي الروح المعنوية والجوهر الأصيل لكيان الأمة. الهوية أيضا هي الوعي بالذات الاجتماعية والثقافية، وهي ليست ثابتة وإنما تتحول تبعا لتحول الواقع، بل أكثر من ذلك هناك داخل كل هوية هويات متعددة ذوات مستويات مختلفة فهي ليست معطى قبلي، بل إن الإنسان هو الذي يخلقها وفق صيرورة التحول وإذا كانت الهوية - اصطلاحا - حديثة العهد بالتداول والاستخدام، لما صارت اليوم مضمونا ذا دلالات عميقة تشمل كل ما يجعل من الفرد والمجتمع شخصية قائمة الذات وعلى قدر كبير من التميز. وفي هذا المقام يقول الدكتور محمد العربي ولد خليفة: (..فقد ارتبط مفهوم الهوية بالهوية الثقافية، وأداتها الأولى وهي اللغة، وأصبح الثلاثي =هوية-ثقافة-لغة)⁸، ويضيف كذلك: (..أن مدلول الهوية الفردية تعني في واقع الحال إحساس الشخص بفردانيته، أي إحساسه بأنه هو نفسه وليس غيره،... وهذا الاختلاف بالذات هو الذي يعرفه على نفسه، وهو يتحرك ضمن ثقافته الكلية، وثقافته الفرعية، ويشعر إذا كان سويا بمدى اقترابه، أو ابتعاده عن منظومة القيم المعيارية المعتمدة في مجتمعه)⁹. والجدير بالذكر أن مصطلح الهوية لم يكن متداولاً في الحياة الثقافية والفكرية في مطلع هذا القرن فلم تكن الهوية من ألفاظ الثقافة والفكر ولا من أدبيات العمل السياسي، إنما ترد على أقلام الكتاب ومفكرين وعلى ألسنة المتحدثين وكانت العبارة التي تدل على هذه المعاني هي الاصالاة الوطنية والشخصية الوطنية بل إن المفهوم نفسه كان ينطوي على هذه المعاني ويعبر عنها أقوى تعبير وأعمق الدلالة. ويشير لفظ الهوية إلى عدة معانٍ ويعود بنا إلى عدة مجالات من التفكير منها

الفلسفة و الميثافزقيا ثم المنطق، و العلوم النفسية و الاجتماعية، كما أن لهذا اللفظ باللغات الأوروبية معاني لا تطابق تمام المطابقة مع ما هو مقصود منه باللغة العربية. و إذا أخذنا لفظ الهوية من حيث اللفظ العربي الذي يقابل اللفظ الأوروبي "Identité" فسيكون المعنى الأساسي الذي يتضمنه هو المطابقة، إذ نعلم أننا عندما نقول شيئين أنهما متماثلان أو متطابقان نستخدم النعت "Identique" فهذا النعت يعني التماهي بين الشيئين أي تطابق هويتيهم. عندما نستخدم عبارة هوية باللغة العربية نقصد هذا المعنى جزئيا لا كلياً، فالهوية تعني المطابقة حقاً، غير أن المطابقة فيها لا تكون مع شيء آخر بل تكون أساساً بين الشيء و ذاته فهوية الشيء هي ما يكون به مطابقاً بذاته و يستمر به كذلك في وجوده. هوية الشيء هي ما يكون به الشيء هو ذاته متمائزاً عن غيره، وأما ماثلته في بعض الخصائص أو اشترك معه فيها. إن ما يشير إليه لفظ هوية هو وحدة الذات عبر التطورات و المظاهر المختلفة، أي أن الهوية هي ما يكون به الشيء أو الشخص مطابق لذاته رغم التغيرات و التطورات، يكون اقرب لفظ فلسفي إلى الهوية بهذا المعنى هو الماهية، وماهية الشيء: تطلق غالباً على الأمر المتعلق، مثل المتعلق من الإنسان، وهو الحيوان الناطق، مع قطع النظر عن الوجود والأمر المتعلق من حيث أنه معقول في جوابه، هو سمي ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج، سمي حقيقة، ومن حيث امتيازه عن غيره، ويضيف الجوهري في كتابه التعريفات في ذات الموضوع، أن الهوية هي الحقيقة المطلقة، المشتمة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق¹⁰، وعيه فماهية الشيء مثل هويته، وهي الجواب عن السؤال ما هو؟ و مفهوم الهوية يحيلنا أيضاً إلى تعبير آخر هو الجوهر فهوية الشيء أو الشخص هي ما يشكل جوهر كينونته في مقابل ما يمكن أن نعتبره خصائص عرضية قابلة للتغير و يبدووا بهذا المعنى أننا نعتبر ما يتغير عرضياً بالنسبة للهوية، و يبدووا كذلك أننا عندما نستخدم لفظ الهوية و نسترشد به في تفكيرنا نقصد أن نبحث عن ما هو ثابت، و عن ما نرغب في الحفاظ عليه و عن ما نظن أنه يبقى رغم كل مظاهر التغير و التطور. و الهوية المبحوث عنها في هذا السياق تهم المجال الثقافي و الاجتماعي و السياسي بالمعنى الواسع لهذه الكلمات أي كلما يكون به مجتمع ما مطابقاً لذاته، رغم التبادلات و التطورات أو هو ما تكون به حضارة ما مطابقة لذاتها و مغايرة لغيرها، الهوية بهذا

المعنى هي نسق من الموروثات الحضارية و من الأسئلة و الأجوبة المتعلقة بالكون و السلوك الإنساني من المعايير الأخلاقية و من العقائد الدينية و هي كذلك ما يعبر عن ذلك و يرتبط به من أعراف وعادات و تقاليد و هي كذلك مجموع التراث الثقافي و الحضاري الذي تراثه جماعة ما عن ماضيها أو يساهم في تشكيل كيائها، و حيث أن كل هوية تتشكل عند الجماعة أو الحضارة عبر تاريخ طويل فإننا نقول أيضا أن الهوية هي وعي الجماعة بتاريخها و تعرفها على ذاتها من خلاله و إذا كنا قد قلنا من جهة أن الهوية هي مطابقة الذات لذاتها و تعرفها لذاتها، وهي ذات مكونات خاصة متميزة عن ما للغير فإننا نقول أيضا أن الهوية هي هذا الشعور الذي يكون لجماعة ما بتاريخها بوصفه تاريخا خاصا تشكلت عبره مكوناتها الذاتية المميز لها، فكل جماعة و كل شعب أو حضارة تتماشى مع تاريخها الخاص. و تتعرف على ذاتها من خلاله و من خلال مجموع المكونات التي تشكلت لها عبر مداه و هذا الشعور الذي هو وعي من الذات الفردية أو الجماعية أو حضارية بما هو في الوقت ذاته شعور بالمغايرة، وهنا يمكن أن نميز بين الهوية الفردية وهي مجموع الخصائص الجسدية و النفسية التي يتميز بها كل إنسان بين أقرانه، و بين هوية الأمة التي ينتمي إليها الفرد أي الهوية القومية و هي مجموع الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها و التي تجعلهم يتميزون بصفاتهم تلك عن ما سواهم من أفراد الأمم الأخرى.

علاقة التراث بالهوية

ومن كل هذا يمكن أن نخلص الى أن الهوية هي: الوعي بالذات الثقافية والاجتماعية، و لا يتأتى هذا الوعي إلا بإدراك القيمة أو العمق الحضاري الذي ينتمي إليه الفرد ومنه المجتمع، ومن هنا يطرح السؤال: هل يمكن أن تلعب الموروثات دورا في غرس الهوية الوطنية لدى الفرد؟ ويمكن أن نجد الإجابة على هذا السؤال حين نجيب عن سؤال آخر هو: متى نلجأ للتراث، فالمعروف أن الإنسان يلجأ للتراث، حين يُريد أن يُثبت للآخر قدم رسوخه في التاريخ، أو بمعنى آخر دور أمته في صناعة الحضارة الإنسانية، ومن هنا نجد التراث من المواد الأساسية للتعريف بحضارة الأمم، فهو يُستخدم كمنتوج سياحي، من هذا المنطلق سعت العديد من الأمم الى المحافظة على إرثها الحضاري، والحرب الدائرة حاليا في البلاد العربية والإسلامية، إلا حرب

حضارة، والدليل على ذلك أن القوات الغازية تعتمد الى نهب المقدرات التراثية للبلاد الضعيفة (المخطوطات....)، وهذا منذ أزمنة خلت (المقدرات الثقافية للأمة الإسلامية في المتاحف العلمية). ولكي يلعب التراث الحضاري لأي مجتمع دوراً في تنمية الحس بالهوية على الأمم أن تسعى الى التمكين له في نفوس الناشئة، لكونه يمثل رافداً من روافد ثقافة الأمة وحضارتها، وذلك من خلال ما يلي:

✓ إدراجه ضمن المنهاج التربوي والتعليمي في جميع المستويات.

✓ تسخير وسائل الإعلام بشتى أنواعها للتعريف بالموروث الحضاري، وفي هذا يجب على الإعلاميين المشتغلين بحقل التراث، أن يكونوا على دراية تامة بمواضيعه وأهميته، وحبذا إن كانوا من ذوي الاختصاص.

✓ أن لا يكون طرق المواضيع التراثية مناسباتياً، ينقطع بمرور المناسبة.

ومهما يكن فالتراث بشقيه المادي و الشفاهي، يمثل ضرباً من أضرب الفن، وأروع ما في الفن أنه يقول شيئاً لا تقوله الحياة، ويرسم باللون أو بالكلمة أو حتى بالحجر نور المعرفة، وقديماً كان الفنان الأول يمد يده ليتكلم ويرسم، وربما كان كلامه صلاة، وربما كان رسمه محاولة للخروج إلى المطلق، أو حتى مجرد استغراق صوفي في الكون، غير أنه وقد بدأ بالأعاجيب الصغيرة، ملك نفسه واطمأن أينما سار فكان كمن يمر بحلم وراء حلم، حتى يستيقظ على الإيمان الصحيح، وفي رحلته تلك أفضى بكل شيء، وترك إفشاءه على لسان الزمان وديعة، فأخفاها وهو من طبيعته الإخفاء. ولم تستطع الأجيال أن تعيش ماضيها، إلا بعد أن راحت تسأله وتحاوره، لقد أصبح الزمان جزءاً من البشر، ولسوف يقول لهم بالقدر الذي يواجهونه بالسؤال، وباحترام كل همسة تصدر عنه، ذلك أنه ليس أغلى من كل قديم يُبعث، وما أجمل أن يبرز مع الحاضر نصب الماضي إذاً يكون التكامل الحضاري، ولا ضير من ثم يعقب سائل: أثري وراء هذه الموروثات ما يُمكن أن يجعلني أعيش؟.

إن الإجابة لن تكون نهائية، ولكن السؤال يعني أنه بدأ يؤمن بالفنان الأول، والإيمان على أية حال، أراد أن يخلق إنساناً أوفر حكمة وأغزر عطاءً، ونستطيع إذاً أنما بما أودعه آباؤنا لسان الزمان أن نرى أنفسنا على حقيقتها، وهذا سر غايتنا بفعل الأولين

إننا امتداداً لهم، ولا يمكن في ظل التقدم الفكري الراهن أن ننكر أننا أكثر حاجة اليوم إلى بداهتهم.

الهوامش:

1. ابن منظور: اللسان، دار الحديث القاهرة، سنة 2003، الجزء الأول، ص 119
2. أحمد بن نعمان: سمات الشخصية الجزائرية، من منظور الأنثروبولوجيا النفسية، م.و.ك. الجزائر، 1988، ص 314
3. ايريك هوبسباوم، وتيرنس رينجر: اختراع التراث، ترجمة شيرين أبو النجا وآخرون، مراجعة وتقديم عاصم الدسوقي، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية-كلية الآداب جامعة القاهرة، 2003، ط 01، ص 6
4. ابن منظور: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 172
5. الحشر، آية 08
6. الممتحنة، آية 08
7. النساء، آية 66
8. محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية، وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر- 2003، ص 90
9. محمد العربي ولد خليفة: نفسه، ص 95
10. علي محمد الجرجاني: التعريفات، ضبطه وفهرسه، محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب المصري القاهرة، 1991، جزئي (الميم والهاء) ص 209 و 258

المراجع المعتمدة:

1. ابن منظور: اللسان، دار الحديث القاهرة، سنة 2003، الجزء الأول.
2. أحمد بن نعمان: سمات الشخصية الجزائرية، من منظور الأنثروبولوجيا النفسية، م.و.ك. الجزائر، 1988.
3. ايريك هوبسباوم، وتيرنس رينجر: اختراع التراث، ترجمة شيرين أبو النجا وآخرون، مراجعة وتقديم عاصم الدسوقي، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية-كلية الآداب جامعة القاهرة، 2003، ط 01.
4. علي محمد الجرجاني: التعريفات، ضبطه وفهرسه، محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب المصري القاهرة، 1991، جزئي (الميم والهاء).
5. محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية، وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر- 2003.